دراسة تحليلية لرواية ابن فطومة للأستاذ نجيب محفوظ

د. ناصر ثناء الله
الأستاذ المساعد، الكلية الحكومية للبنين بسوبور،
جامو وكشمير

هذه رواية رمزية بسيطة السرد صغيرة الحجم حيث لا تتجاوز ١٥٨ صفحة. تحكي حكاية رحالة اسمه قنديل محمد العنابي الذي مات أبوه وهو صغير فتعرض للظلم من إخوته الكبار الذين هضموا حقه من ميراث أبيه وأطلقوا عليه اسم ابن فطومة نسبة إلى أمه وتبرئة من قرابته وتشكيكا فيها. كانت أمه فطومة الأزهري بنت سبعة عشر حين رءاها محمد العنابي وهو تاجر كبير مترع بالثراء وقد جاوز الثمانين متمتعا بالصحة والعافية فتزوج منها، ومات الرجل قبل أن يطبع صورته في وعي ابنه فترعرع الابن تحت رعاية أمه، وكانت أمه تخاف على نفسها وعلى ابنها الوحيد قنديل حتى قررت أن لا ترسله إلى الكتاب.

وبعد قليل من الزمن يدخل رجل أخر في الرواية وهو الشيخ مغاغة الجبيلي الذي كان جارا لأسرة فطومة فدعته فطومة لتعليم ابنها في دارها هي ووافق الشيخ وأخذ الطفل يتلقى دروسا في القرآن والحديث والفقه واللغة والحساب والأدب والرحلات وكانت الأم نفسها تستفيد من هذه الدروس منصتة من وراء ستار. وكان من عادة الشيخ أنه كان يخصص بعض الوقت للمناقشة، وهذه هي فرصة أولى التي يخلقها الكاتب لنفسه فيظهر على لسان بطل الرواية بعض الإشكاليات حول نظام الإسلام وكونه صالحا لهذا العصر." ويدور يوما الحديث التالي بين التلميذ وأستاذه، يسأل التلميذ:

- إذا كان الإسلام كما تقول فلماذا تزدحم الطرقات بالفقراء والجهلاء؟

فأجابني بأسى:

- الإسلام اليوم قابع في الجوامع لا يتعداها إلى الخارج

ويفيض في الحديث فيلهب الأوضاع بنيرانه ... حتى الوالي لا يسلم من شرره. وقلت له:

- إذن إبليس هو الذي يهيمن علينا لا الوحي.

فقال برضا:

- أهنئك على قولك، إنه أكبر من سنك....

- والعمل يا سيدنا الشيخ؟

فقال بهدوء:

- أنت ذكي، وكل آت قريب. ."[1]

هكذا يضع الكاتب اللبنة الأولى من أفكاره -التي لا تخلو من تشكيكه في كون الإسلام صالحا لهذا العصر-في فكر بطل الرواية ولهذا السبب نرى طول تتبعنا للرواية أن هذا التشكيك يدوم في فكر البطل حتى النهاية. ومن أطرف الأشياء التي يلاحظ في هذه المناقشة هو أن التلميذ ما زاده تلقى الدروس من الشيخ إلا تشكيكا في دينه وشوقا إلى الرحلات حتى يعثر على دار الجبل حيث يوجد" الكمال الذي ليس بعده كمال " ونفس التشكيك يظهر في مناقشة أخرى تجري بين التلميذ وأمه، حيث تقول له الأم:

- الله صانع كل شيء، وله في كل شيء حكمة. .

فقلت مندفعا:

- ساءني الظلم والفقر والجهل![2]

ومع هذه الصياغة الذهنية يصل التلميذ إلى مشارف الشباب ويرا يوما ابنة جارهم حليمة عدلي الطنطاوي وقد سقط خمارها عن وجهها الحسن فأراد الزواج منها إلا أنه لم يتمكن من تحقيق هذا الحلم لأن الحاجب الثالث للوالي لما رأى حليمة قرر أن يجعل منها زوجته الرابعة فذعر أبوها وفسخت الخطوبة وزفت حليمة إلى الحاجب الثالث ما بين يوم وليلة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان أستاذ البطل وأمه

---

[1]. نجيب محفوظ، رواية رحلة ابن فطومة، مصر، دار مصر للطباعة، بدون التاريخ، ص:٧ – ٨.

[2]. السابق، ص:١١

يرغبانه في العمل ولكنه لما أظهر إرادته بالزواج أولا و وافقته الأم، فوجئ يوما عندما قال له أستاذه بأنه يريد الزواج من أمه، ولم تكن مفاجئته أقل عندما وجد الأم توافق على أمر الزواج بعد تردد بسيط ففاض غيظا وغضبا ولم يملك أن يقول شيئا لأمه أو لأستاذه لأنهما كانا أعز شخصين في حياته فقال لنفسه وهو سائم من هذه الوحدة الكئيبة :

- خانني الدين، خانتني أمي، خانتني حليمة، ألا لعنة الله على هذه الدار الزائفة.[١]

فدفعه كل هذا بالعنف إلى اكتشاف الدواء الشافي لكل ما أصاب مجتمعه من داء، فخرج رحالة وكان دار المشرق أولى محطة له، وفيه يتنبه أول ما يتنبه إليه الرحالة أن الناس يعيشون عراة على الفطرة وسعداء بالغفلة، وفي ليلة البدر يمارسون الجنس الجماعي باعتبارها عبادة لأنهم قوم يعبدون القمر، ولكل مدينة من مدن دار المشرق "سيد" هو يملك كل ما يضمنها والناس عبيدة يخضعون لمشيئته نظير الكفاف من الرزق والأمن، وأن الناس فيه يخضعون لنظرية فرويد حول علاقة الرجل بالمرأة، فإنهم يزعمون أن:

- نصف المصائب في البلدان إن لم يكن كلها تجئ من القيود المكبلة للشهوة، فإذا شبعت أمكن أن تصير الحياة لهوا ورضى![٢]

ورغم تقززه من هذا النظام الاجتماعي تزوج من فتاة فيه وأنجب منها الأولاد ولما أراد تربيتهم على طريقة إسلامية أعرضته زوجه أولا ثم الجميع حتى انكشف هذا السر على سيد المدينة فقام بترحيله.

وفي محطته الثانية "دار الحيرة " يعرف أول ما يعرف عن "دار الحيرة " هو أن ملكه هو إلهه وبقية الناس لا قداسة لهم ولا مواهب، يريد الملك وجلساءه تحرير

---

١. السابق، ص :١٧

٢. السابق، ص:٤٢

العبيد في المشرق من الحكام الطغاة لتحقيق العدالة فيه إلا أنهم قد تجاهلوا الفقراء والمساكين الذين يعيشون في دارهم والذين لم يتمتعوا بهذه العدالة المزعومة يوما من الأيام، هذا التناقض بين الشعارات الكاذبة والممارسة العملية يذكر الرحالة بلاده "دار الوحي" فهو يرى:

- ما من سيئة عثرت بها في رحلتي إلا وذكرتني ببلادي الحزينة. .[1]

ولما يرى رؤوسا آدمية منفصلة عن أجسادها وقيل له على التساؤل بأنها رؤوس المتمردين على الملك الإله فعلم بأنها – ولا شك – رؤوس شهداء الحرية والعدالة، " قياسا على ما يقع عادة في بلاد الوحي " وأدرك أن الحرية الفردية هي مفقودة ومهددة في هذا الدار فلم يستصلح هذا النظام الاجتماعي والسياسي.

وفي محطته الثالثة وهي "دار الحلبة " التي يعتبرها شعبها دار الحرية. وعرف الرحالة أن هذه الحرية في هذه الدار لا تعرف الحدود ولا القيود فاستنكرها. وسمع يوما صوت الأذان وهو يخترق أستار الفضاء وكذلك أستار آذانه بعد ردح من الزمن فذهب إلى مصدر الصوت ووجد هناك مسجدا فصلى صلاة الظهر ولقي بإمام المسجد وعرف منه أن هذه الدار فيه مسلمون ويهود ومسيحيون وبوذيون، بل فيها ملحدون ووثنيون فدهش الرحالة وسأل الأمام:

- وبأي دين تلتزم الدولة؟
- الدولة لا شأن لها بالأديان ..
- وكيف توفق بين أهل الملل والنحل؟

فقال بوضوح:

- تعامل الجميع على قدم المساواة الكاملة.

.....

- الحرية هي القيمة المقدسة المسلم بها عند الجميع!

---

[1]. السابق، ق:٦٢

فقلت محتجا:

- هذه الحرية جاوزت الحدود الإسلامية. .
- لكنها مقدسة أيضا في إسلام الحلبة. .

فقلت وأنا أكابد خيبة أمل:

- لو بعث نبينا اليوم لأنكر هذا الجانب في إسلامكم. .

فتساءل بدوره:

- ولو بعث عليه الصلاة والسلام أما كان ينكر إسلامكم كله؟

آه .. صدق الرجل وأذلني بتساؤله. ...[1]

تتجلى العلمانية في هذا الحوار بوضوح، يبدو أن الكاتب يريد ضرب التيار الإسلامي الذي كان يدعى أن الإسلام هو عقيدة وشريعة، دين ودولة ويجب أن تصطبغ حياة المسلم بسائر مجالاته بصبغة الإسلام، لأنه يشيد إسلام "دار الحلبة " الذي يفضل شعبها الحرية والتعايش السلمي بين الموطنين على الإسلام ذاته، وأنه يشير إلى أن الحرية هي قيمة مقدسة ولا بد من تحقيقها ولو اقتضت التجاوز من الحدود الإسلامية ذاتها.

ويتضح مزيد من ملامح العلمانية عندما يسأل الرحالة قنديل إمام المسجد الشيخ حمادة السبكي عن نظام الحكم فيجيبه الإمام قائلا:

- ... أن رئيس دولتنا ينتخب تبعا لمواصفات علمية وأخلاقية وسياسية، فيحكم مقدار عشر سنوات، ثم يعتزل ليحل محله قاضى القضاة، وتجرى انتخابات جديدة بين الرئيس المعتزل والمرشحين الجدد. .

فهتف بحماس:

- نظام حسن. .[2]

---

[1]. السابق، ص:٨٩ – ٩١

[2]. السابق، ص:٩٢

ويخبره أن الزراعة والصناعة يقوم بها القادرون من الأهالي ولكن رغم هذا يوجد الفقراء والأغنياء والعاطلون واللصوص والقتلة، هذا يدفع الرحالة إلى التساؤل:

- لو أنكم تطبقون الشريعة ؟!
- لكنكم تطبقونها!

فقلت بإصرار:

- الحق أنها لا تطبق.
- الالتزام هنا بالمرجع، وهو يطبق نصا وروحا. .
- ولكن الدولة ملتزمة بالأمن والدفاع فقط فيما يخيل إلى. .
- وبالمشروعات العامة التي يعجز عنها الأفراد كالحدائق والجسور والمتاحف، ولها مدارس بالمجان للنابغين من الفقراء، ومستشفيات بالمجان كذلك ولكن جل الأنشطة فردية. .[1]

ويدعوه الإمام إلى الغداء فتتضح ملامح أخرى لهذا الإسلام وامتزاجه بالعلمانية حتى فقدت ميزته، يرى ما يدهشه أن أسرة الأمام -المكونة من زوجه وكريمته وابنيه – تتناول الغداء على مائدة واحدة وأفضح منه أنه قدم إليهم أقداح النبيذ، وبرر الإمام تناول النبيذ بقوله:

- ...الاجتهاد عندنا لم يتوقف، ونحن نشرب مجاراة للجو والتقاليد ولكننا لا نسكر[2]

والانطلاقة في الحديث مع الأجانب، التي تتميز بها نساء الغرب وتمثلها في الرواية زوج الإمام وكريمته سامية، هي الأخرى من ملامح الإسلام السائد في دار الحلبة والذي يريد الكاتب طرحه علينا كنموذج أمثل يجب أن يحتذى في "دار الوحي". فهو يجعل سامية تنتقد دور المرأة في "دار الوحي" بشدة.

---

[1]. السابق، ص:٩٣

[2]. السابق، ص:٩٦

وتتجلى الأفكار العلمانية في حوار يجري بين الرحالة قنديل وحكيم "دار الحلبة " يدعى مرهم الحلبي عن كيف صنعوا حياتهم، فأجابه بأنهم صنعوها بأنفسهم، ثم يضيف قائلا:

- لا فضل في ذلك لإله، آمن مفكرنا الأول بأن هدف الحياة هو الحرية، ومنه صدر أول دعوة للحرية، وراحت تتسلسل جيلا بعد جيل. ... وقال:
- بذلك اعتبر كل تحرر خيرا وكل قيد شرا، أنشأنا نظاما للحكم حررنا من الاستبداد، وقدسنا العمل ليحررنا من الفقر، وأبدعنا العلم ليحررنا من الجهل، وهكذا.. وهكذا.. فإنه طريق طويلة بلا نهاية. ...وقال:
- لم يكن طريق الحرية سهلا، ودفعنا ثمنه عرقا ودما، كنا أسرى الخرافة والاستبداد، وتقدم الرواد، وضربت الأعناق، واشتعلت الثورات، ونشبت حروب أهلية، حتى انتصرت الحرية وانتصر العلم. .[1]

ولن يرفض من له أدنى إلمام بالتاريخ الأوروبي أن كل ما يجري في هذا الحوار إنما هو سرد روائي لذلك التاريخ الطويل المحفوف بالظلم والقتل والنيل من كرامة الإنسان وشرافته، وأن الخرافات التي ورد ذكرها فيه هي الدين المسيحي، وبه يزعم الكاتب أن شأن الإسلام شأن المسيحية لا يختلف عنها في شيئ، وأنه يجب أن يتنصل المسلمون من دينهم، كما سبقهم المسيحيون في هذا الأمر، إذا أرادوا حل "مشكلة الدين" وطمعوا بالتقدم والسعادة. ويبدوا أن الكاتب هو يعرف معرفة جيدة أن الدولة الحديثة العلمانية قامت في الغرب على أنقاض المسيحية، لذا لا بد أن يقوم المسلمون بنفس العملية – عملية هدم الدين ثم بناء الدولة من جديد وكذلك صياغة الدين صياغة جديدة بشكل كلي-وهكذا تتحقق أحلام العلمانيين العرب.

وقد أفسح الكاتب صفحات الرواية للحكيم ليتحدث عن القضايا الأخرى ويغرس أفكاره في الرحالة والقارئ أيضا. فهو يعتبر أن "الرحمة" لا قيمة لها وهي ما

---

[1]. السابق، ص:١٠١-١٠٢

يردده أهل الديانات، ويقول إن دينه هو "دين إلهه العقل ورسوله الحرية " وكذلك الإمام يعتبر الأساس الأخلاقي قشورا وكريمته ـ سامية ـ تعتبر العالم غابة، ويقول الإمام عن دار الوحي:

- انظر يا قنديل وطنك دار الإسلام فماذا تجد به؟.. حاكم مستبد يحكم بهواه فأين الأساس الأخلاقي؟ ورجال دين يطوعون الدين لخدمته فأين الأساس الأخلاقي؟ وشعب لا يفكر إلا في لقمته فأين الأساس الأخلاقي؟[1]

يأتي كلام الإمام هذا بعد قداسته للحرية وتبريره إلغاء اتفاقية عيون المياه التي كانت باعتبارها مشتركة بين دار الحلبة ودار الأمان، أليس هي فكرة ميكيافيلية التي لا تقوم بأي قيمة القيم الأخلاقية عندما تصبح عرقلة في مسير الدولة والسيطرة على ما تشتهي، ورغم ذلك يتباهى به الإمام والمسلمون في دار الحلبة.

ثم أراد الرحالة أن يواصل رحلته وكانت "دار الأمان" محطته التالية، وهي دار العدالة الشاملة كما يعتبرها شعبها. أول فكر احتك به الرحالة هنا هو أن الخمر ضرورية مع كل وجبة ولما اعترض عنها قال له مرشده فلوكة:

- أتصدك حقا أن إلهك يهمه أن تشرب خمرا أولا تشربها؟[2]

والشعب في دار الأمان يعبدون الأرض باعتبارها خالق الإنسان ومدخر احتياجاته، ولا يوجد هنا العاطل، كل إنسان يعمل رجلا كان أم امرأة إلا العجائز فلهم الحدائق يقضون فيها لمحات حياتهم الأخيرة. ولا يوجد الفقراء والأغنياء فيه، أما النظام السياسي فالرئيس فيه هو مهيمن على كل شيء، والحرية الفردية عقوبتها الإعدام في هذه الدار، وأنهم يقدمون القانون والنظام على الحرية.

ثم يواصل الرحالة رحلته ويصل إلى محطته الأخرى وهي "دار الغروب" هي جنة بلا ناس ولا يجد الرحالة فيها شيئا مهما من المعرفة السياسية والاجتماعية التي كان

---

[1]. السابق، ص:١١٤

[2]. السابق ص:١٢٤

قد قام برحلة من أجله إلا أنه وجد هنا شيخا كان يدرب الناس على اكتشاف الخزائن المكنونة في أعماق أنفسهم التي تزودهم في رحلتهم إلى "دار الجبل" دار الكمال فمكث الرحالة عنده لمدة ثم واصل رحلته إلى دار الجبل إلا أنه لم يصله وتنتهي الرواية.

ومن حقنا أن نتساءل هنا لماذا تنتهي الرواية دون وصول البطل إلى دار الجبل ومن ثم دون عودته إلى بلاده حتى يقوم بالإصلاح ما فسد في مجتمعه وهي المجتمع الإسلامي؟ يبدو أن الكاتب قد فقد الأمل في إصلاح مجتمعه ومن الطريف أنه قد ذاق طعم الأنظمة كلها وأدرك جوانبها الإيجابية والسلبية ثم لم يراجع فهمه للإسلام. ذلك لأنه يريد الإسلام أن يكون كإسلام "دار الحلبة" الذي لا يتجاوز حدود الحياة الخاصة والذي فقد كل مميزاتها وفاعليتها وحيويتها وأصبح كالمسيحية واليهودية والبوذية لا يميزه منها شيئ، فتتحرر السياسة من الإسلام ويتحرر الاقتصاد والنظام الاجتماعي والأخلاق والنساء من "قيود الإسلام" ومن "الخرافات القديمة "، ويصبح المجتمع بلا مرجع، ليس فقط في جزئياته بل في كلياته أيضا، كما تصبح الرواية أشبه بالمحاضرة السياسية ذات التوجه الفكري اليساري المتطرف منه بالكتاب الأدبي الذي يتناول قضايا مجتمعه، سواء أكانت قضايا سياسية أم اجتماعية، بعد أن تحرر الكاتب من الميل بشكل كامل إلى اليسار الفكري أو اليمين لأنه يكتب للمجتمع الذي يتمتع بحبل الله الذي لا انفصام لها وهي مرجع الناس في كل أنشطتهم الفكرية والأدبية، ويجب أن نأخذ في الحسبان أن الحلول الواردة لا تحل مشاكل المجتمع وإنما تزيد الطين بلة وتضاعف في مشاكل الناس أضعافا مضاعفة، فالمجتمع الإسلامي لا يصلح إلا إذا أنشأ أنظمة سياسية واجتماعية واقتصادية في ضوء كليات مرجعيته الأصيلة والصالحة لكل المكان والزمان.

نشرت هذه الرواية في بداية الثمانينات من القرن المنصرم، وكان الأستاذ نجيب محفوظ قد تجاوز السبعين من عمره وهي المرحلة من حيات الإنسان التي قد نضجت أفكاره وتبلورت أراءه وظهرت جلية ميوله الأيديولوجية، فلا يمكن أن يقول أو يفعل ما لا يؤمن به قلبه ولا يعترف بفضله عقله، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نرى أن

العالم كان قد أدرك – وقتئذ – قصور الأنظمة السياسية والاجتماعية المؤسسة على العقل المجرد دون الوحي المنزل، فعلى سبيل المثال كان الكاتب الإنجليزي الشهير جورج أورول قد كتب رواية صغيرة بسيطة في ١٩٤٥ وهي "Animal Farm"، صور فيها ولادة الشيوعية - وهي ردة فعل للرأسمالية – وعروجها في روسيا وكيف فشلت فشلا ذريعا في تحقيق العدالة الاجتماعية والسعادة الإنسانية، ومن جانب أخر كان المفكرون والمثقفون ذووا التوجهات الفكرية الإسلامية قد أثبتوا عدم توافق الحلول المستوردة لحل المشاكل المحلية للمجتمعات المسلمة وكانوا قد دللوا على صلاحية النظام السياسي والاجتماعي الإسلامي الأصيل للمجتمعات المسلمة الحديثة وأنه لا يعرقل التقدم ولا الرقيّ كما لا يعارض العلم ولا العقل.

ولكن، ورغم كل ذلك، خصّص الأستاذ محفوظ قلمه وعبقريته الفنية وملكته الابتكارية لإثبات صلاحية الأفكار العلمانية والشيوعية للمجتمعات الإسلامية وبذل حياته لترويجها في العالم العربي الإسلامي كما لم يتردد من النيل من المقدسات الدينية والشعائر الإسلامية حتى سخر من أساسيات الدين الإسلامي، رواياته مملوءة بهذه الأفكار المسمومة، ورواية " ابن فطومة " التي قمنا بدراستها إنما هي نافذة صغيرة للتعرف على ما تحمل رواياته من زيغ وضلال فكريّ وانحراف عقدي.

المراجع والمصادر

١. فرج، الدكتور السيد أحمد. **أدب نجيب محفوظ: وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب**، مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر، ١٩٩٠م.
٢. الجندي، أنور. **المعارك الأدبية في مصر منذ ١٩١٤ – ١٩٣٩**، مصر: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٣م.
٣. المسيري، الدكتور عبد الوهاب. **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، مصر: دار الشروق، ٢٠٠٢م.
٤. القرضاوي، الدكتور يوسف. **الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا**، مصر: مكتبة وهبة، ١٩٩٣م.
٥. قطب، محمد. **مذاهب فكرية معاصرة**، مصر: دار الشروق، ١٩٩٣م.
٦. أورول، جورج. **مزرعة الحيوانات**، مصر: دار الشروق، ٢٠٠٩م.

* * *